

الحمد الفاضل

بين أدب الروح وأدب المعدة

للأستاذ محمود علي قراعة



قرأت لأستاذنا الدكتور زكي مبارك في العدد ٣٢٥ كلمة ذكر فيها آخرها آية كريمة وسألنا هل نلها أدب معدة أم أدب روح. وهو بذلك يحاول أن يدخلنا في الميدان الذي دخل فيه متجدداً كل فكرة روحية، منهكاً على كل نزعة سماوية، مستنداً بذلك إلى مكانته الأدبية ولباقة وما أوتي من قوة غربية على الدفاع عن القضايا الخاسرة. وهو لذلك يقف دائماً نصيراً لكل فكرة حسية ويقف نفسه موقف المداء لكثير من المنويات وإن كان قلبه السيمال كثيراً ما يجرفه ويخرجه عن الحسيات إلى المنويات والروحيات من غير أن يشعر. والحقيقة أن الدكتور زكي مبارك مشكلة لأنه خليط لم يمتزج بنسب معينة من القوى النفسية المختلفة، فتارة تراه الخير كله والإخلاص كله والوفاء كله، وآونة تجمده يحيل كل الميل إلى الخروج عما يتصل بالروح إلى النزول إلى ما يوثقه بكل أرضى وبكل نازع لحسي. وفي تاريخه أمثلة متضاربة لكل ما يمكن تصوره من الميل إلى أحد هذين الجانبين؛ فتارة تراه سوفياً مدروساً، وأخرى تلفيه ساخراً بالحياة وعابثاً فيها. ولكن إذا كان أستاذنا الدكتور يرى لنفسه الحق في أن يتشكل كما يشاء وأن ينضم إلى الجانب الذي يريد، فلا أدري لماذا تراه منهكاً على كل فكرة روحية ومحارباً لكل النازعين إليها؟ كثيراً ما رددت في الرسالة كلمة أدب الروح وأدب المعدة، لأن الاصطلاح في ذاته غير موفق بل لأن أستاذنا أحمد أمين قد وضعه لتقويم الأدب وصحة تقديره. ولأستاذنا الدكتور الخيرة في أن يواصل حملاته على صديقه أو أن يقفها لأنه حر إذ لم يرد أن يسمع رجاء تلاميذه وإخوانه في أن النقد ممكن من غير خصومة كما فعل أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام؛ ولكن الذي لا نقره ولا نستطيع السكوت عليه أن نفعل مناقشة ما يرد في حملاته مما عسى أن يمس الأدب في ذاته من قريب أو بعيد. فاستاذنا أحمد أمين يعني بأدب الروح الأدب الذي

يتصل بالمواظف السامية عند الإنسان فيهبها ويرقيها ويفذيها؛ ولذلك زأى أن القرآن أدب روح لأنه يسمو بالإنسان عن عالم المادة ويأخذ بيده إلى السماء لينظر إلى الأرض وما فيها نظرة تربة الحق حقاً والباطل باطلاً. ولكن أستاذنا الدكتور زكي مبارك تأبى عليه نزعته الحسية إلا أن يعارض هذا. ورأى أن أقرب مثل يؤيد وجهة نظره أن يذكر ما في القرآن من آيات تذكر وجود أشياء حسية في الجنة، مع أنه كان يجب على أستاذنا الدكتور أن يرى أن أقل ما يمكن تصوره في عالم سيخلو من البؤس والفقر والهرم، ولن تهيب طبيعته المجال لظهور الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة وما يدخل تحت كل منها من فضائل إنسانية، أن ينم الناس فيه بالاتحاد والمحبة فتتاح لهم أنواع المحبة من الهئية وصداقة أخوية، وفهم نزوع الأشياء المادية التي ستوجد هناك إلى التمتع بفكرتها الروحية، فما وجد من جميل صور من حور وولدان، نزع به إلى فكرة تقديس خالق هذه الصور، وما وجد من قصور وأنهار وفاكهة نزع به إلى النشوة الروحية من وجود هذه الأشياء، وأن ليس معنى هذا خلو الجنة من استلذاذ بالحور العين الاستلذاذ الحسي أو بما هنا لك من ما كول ومشروب وحلى وحلل، وبذا نضع الفكرة الروحية في درجتها الملوية ونجعل الحسيات في درجتها الثانوية، بل ونسمو بها إلى فهمها الفهم القريب من الروح. ونحن بذلك نسمو باللذة الممكن تصورها في الجنة من غير نكران لحسيتها بجملتنا الحسي تابكاً للروحي إذ أكر جزئياته روحية. ولو تدبر الدكتور قوله تعالى في سورة السجدة: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» وقول النبي (ص) في حديث قدسي عن ربه تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» لوصل إلى أن المذكور في القرآن في سورتي الرحمن والواقعة وغيرها وفي الأحاديث الصحيحة لا يفيد أن المذكور مذكور على سبيل الحصر بل على سبيل التمثيل لما سيوجد، ولعرف أننا وقد استبعدنا الأخذ بالنظرية التصويرية لمخالفاتها لكثير من النصوص وما تحتله قرائنها مثل الطمط للحور، لا نجد أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن نأخذ بالنظرية الحسية أي بتخليب الذات الحسية على الروحية، أو أن نأخذ بالنظرية الروحية التي تغلب اللذة الروحية على الحسية

والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا فدونهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رسم أجر المامنين^(١) »

فهذه الآيات الكريمة وأمثالها التي كثر ذكرها في القرآن الكريم أكبر دليل على أن القرآن روحى لأنه جعل الجنة (حتى لو أخذنا بحسبة اللذات إطلاقاً) جزاء المجاهدين والصالحين والمتقين والمؤمنين والمستغفرين ؛ أى جزاء من سمت روحه بالإيمان وزكى نفسه بالتقوى وكان روحانياً بالمجاهد والعفو والصلاح

وبرى أستاذنا أحمد أمين أن باب الحماسة في ديوان الحماسة مثلاً أدب روح لأنه صادر عن نفوس قوية، وباعت لمشاعر قوية، وداع لمواجهة هذا العالم وما فيه بنفوس أبيّة ، في غير خضوع ولا استخذاء ، فلم يمترض أستاذنا الدكتور زكى مبارك على هذا لأنه لا يستطيع مهما كان نصيراً للحسبة أن يقول بغير هذا ، لذلك نجده بلباقة زكية مباركة قد أغفل ذكر الحماسة وتخطاها إلى ذكر النزل والحب . فاستاذنا أحمد أمين يرى أن غزل جميل وكثير والعباس بن الأحنف ، أدب روح ، لأنه بصهر النفس ويظهرها ويحمل من آلامها وآمالها مبعثاً لفيض الحنان والرحمة والمطف على العالم وعلى الإنسانية كلها . وقال إن النزل الفاجر أدب معده وإن تعليل ذلك واضح بقليل من إعمال الفكر ، فأتى أستاذنا الدكتور زكى مبارك في العدد ٣٢٢ من الرسالة بمرض هذه الفكرة بقوله : « ... لا يمكن للمرأة أن تكون مصدر وحي وإلهام للرجل إلا إذا اشتهاها شهوة حسية ، ومن قال بغير ذلك فهو رجل ضعيف لا يدرك جوهر الصلات بين الرجال والنساء » ويقرر أن رجال الأخلاق لم يستنكروا الشهوات إلا بسبب الإصراف ؛ أما الشهوات في حد ذاتها فهي من دلائل العافية ، وأن فضيلة العفاف لا يقام لها وزن إلا حين تصدر من رجال منرودين بحموية الشهوات ، وأن للشهوة الحسية صلة بتفوق الرجال في الميادين العقلية ، وهذا ليس مستبعداً من أستاذنا الدكتور الذى يعبر في كل كتاباته عن ميله للحسيات

(١) فأخبر أنه أهدى الجنة للمتقين دون غيرهم

فلو أخذنا بحسبتها تغليياً ، لنزلنا بها ولشبهناها بلذة الدنيا المتواضعة فأخرجناها من سموها الذى يجب أن تكون فيه لتتلاءم مع نفوس أصحابها ، ولذا لم يكن بد من أن نأخذ بروحية اللذات تغليياً . وعلى ذلك فذكر القرآن الكريم الأشياء المادية حتى على فرض الأخذ بالنظرية الحسية إطلاقاً لا يفيد أن القرآن أدب معده وهو مملوء بما يفيد أن الجنة جزاء من عمل صالحاً وجزاء من اتقى .

وليتل دكتورنا إذا شاء قول الله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً » وقوله تعالى « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقوله « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » وقوله « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم يشهده المقربون » وقوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى يبيعكم به وذلك هو الفوز العظيم » وقوله حكاية عن أولى الألباب من عباده قولهم « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد^(١) » وقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها^(٢) » وقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم » وقوله : « إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق » وقوله : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الفیظ والمافين عن الناس ،

(١) واللقى وآتانا ما وعدتنا على السنة رسلك من دخول الجنة على

تفسير ابن قيم الجوزية في كتابه حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ص ٦٧

(٢) والفردوس اسم يقال على جميع الجنة ، ويقال على أنفسها وأعلامها

يسمى ما يتصل بالروح كرواية رفايل أدب روح ، وما يتصل بالجسد أدب معدة لأنه يتصل بالمعدة ؟ وكيف أجاز لنفسه أن يدعى أن القائلين بروحانية الأدب قد خلوا من الفتوة ، أو أن المرأة لا تلهم الرجل إلا بأشهرها حسياً ، أو بمعنى آخر إلا إذا كانت الصلة بينه وبينها بهيمية ، بمعنى أنها إذا كانت روحية بريئة لا تلهم على رأى الدكتور وفي هذا ما فيه من النزول بالصلوات وما فيه من الإلفاء لشمور القلبى والقرب من البهيمية التى لا يهيمها من الفحل إلا عملية التلقيح

ويقول أستاذنا أحمد أمين إن أدب الطبيعة أدب روح ، لأنه شعور بالجمال مجرداً عن الرغبة وتقدير للحسن منزها عن الأثرة ، ومزيج من شعور بجمال وجلال يحد من كبرياء الإنسان ، ونبل هذا الأدب إنما يرجع لنبل غرضه . وظاهر أن غرض المتغزل فى الطبيعة التى خلقها الله ، هو التفكير فى خلق الله ، وفى تقديس ما أوجده الله لنا من أشياء حسية تدل فى خلقها ، وسمو صنمها على جليل قدرته وعظيم قوته ، أى أن أستاذنا أحمد أمين يرى أدب الروح هو كل أدب انبثت عن عواطف نبيلة ويدفع إلى أعمال نبيلة ، ولا أظن أستاذنا الدكتور زكى مبارك يمترض اعتراضاً جديداً على هذه التسمية

أما أدب المعدة فيرى أستاذنا أحمد أمين أنه ذلك الأدب الذى يدور حول ملء المعدة واستدراار المال وتحصيل القوت ، ومثل لذلك بالغزل العاجز ومقالات الكاتب التى باعها الأول ملء الأعمدة والاستيلاء على الأجرة ، وأدب المديح ؛ وظاهر أن سبب هذه التسمية ضمة الأدب الذى يكون باعته استدراار عطف من يندق على المادح المال أو يفيد من الجاه ، وتقافة الأدب الذى يكون باعته الأول لاحب الأدب فى ذاته أو الرقبة فى البحث فى ذاتها أو الانتناع بفكرة بيمينها ، بل لأنه مسوق إلى أن يكتب موضوعاً معيناً وإلى أن يصوغ فكرة معينة على أسلوب معين على قدر كذا من الأعمدة ليتقاضى كذا من الجنيهات ، وكذلك الغزل الوقح أو الوصف المكشوف لما يئزو بالرؤوس ويحرك الشهوات ، فلا ريب فى أنه وضع لاتصاله بالضمة ، وعلى ذلك يمكن أن نجعل الغزل من أدب الروح إذا أخرجناه عن تحريك الشهوات وكان القصد منه الحديث عن صلة

وهو بهذا ينصر أدب المعدة ؛ لأنه ينصر الحب الفاسد ويخذل أدب الروح ، لأنه يخذل الحب الروحى الذى يجمع بين قلبين ، ولكن الغريب مع هذا أن نجد لأستاذنا الدكتور بعض كتابات تجعله من أنصار أدب الروح فشلاً وقد فتحت الآن كتابه « ذكريات باريس » قد صادفتنى ص ١٣ وفيها يقول وصفاً لحسناء « هى فتاة ناهد حسناء وشيقة القد ، مشرقة الجبين ، فى عينيها النجلاوين بقايا خطيرة من سحر هاروت وماروت ... وفى صورتها غنسة موسيقية ... ولأناملها رقعة جذابة تفيض بالكهرباء ... وفى خطراتها تكسرتون ... ولها رفق بارع فى إذكاء نار الحب والوجد فيمن تختار من أصحاب القلوب ... » فهذا الوصف من أدب الروح لأنه يعطى القارى فكرة روحية عن حسناء زكى مبارك الجميلة . وكذلك أعد من أدب الروح مقالة الحب الأثيم فى باريس ص ١٥ وما بعدها ، لأنه وإن حدث عما فى حدائق باريس من عشاق متماثلين ومتماثقات فوق المقاعد مظللين بالأشجار للورقة ، فقد كتب مقاله ليقرر « أن الشاب الذى يحمله جنون الشباب على غشيان المواخير القذرة ثم يحمل مرضاً يميا فى برثه الأطباء » إنما يندع نفسه بقوله إنها تجربة ، وإن كان قد أبى عليه حبه للحسيات إلا أن يجعل جزءاً منه أدب صمدته بتقريره بوجود حب شريف غير الهوى العفري المعروف عند العرب « وهو الذى يجرى بين فتى وفتاة أو رجل وامرأة لغرض غير مادى وتقع حوادثه فى الأوساط المعروفة بالاستقامة وحسن السمعة ... ويستبيح أشنع الذنوب والآثام ولكنه مع ذلك يجرى فيه الأرق وتسيل من أجله المدامع ، وتعرف فيه نكبات الوشاة والمذال ، وتتخذ من أجله الرسل ، وتدون له الكتابات ... » ولعل الحد الفاصل بين الحب الروحى والحب الفاسد هو أن الصلة فى الحب الروحى تصل بين روحين وقلبين ، كما رأينا فى رفايل لامارتين وتعريب أستاذنا أحمد حسن الزيات ؛ فى ص ٨٢ تستنكر جوليا أن يتدل الحب إلى اللذة الحسية الرضيعة ، أو يتدنى إلى الشهوة الدنسة الخفيرة لأنه إذ ذاك يفقد كبرياءه ونمائه وبقائه . فيجيبها رفايل فى ص ٢٠٢ : بأن نار الحب القدسية قد أنت على هذه الشهوات الباطلة والنزعات السافلة فحولتها إلى حب صاف كقلبها نقى كحبها . ولذلك لا أدري كيف يستنكر أستاذنا الدكتور أن